التاريخ فى سير أعلامه :

ملتن . . .

[الفيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . . .]

للاستاذ محمود الخفيف

— ١٤ —

بين الطغيان والحرية :

تربى جيمس فى اسكتلندة تربية بروتستنتية إلا أن هواه كان مع الكاثوليك ، ولم يك ذلك بدافع العقيدة فما كان يعبأ مثله بعقيدة ، وإنما كان بدافع الرغبة فى الاستناد إلى الكنيسة كدعامة من دعائم الاستبداد .

وكان البيوريتانز قد تزايد عددهم فى البلاد حتى أصبحوا قوة عظيمة ، وكان هؤلاء خارجون على كنيسة انجلترة لأنها كاثوليكية العقيدة وإن كانت رياستها للملك انجلترة منذ فصلها هنرى الثامن عن رياسة روما .

وقد كان هؤلاء البيوريتانز عند نشأتهم كما رأينا فريقاً من قساوسة الكنيسة الانجليزية ولكنهم فى الواقع أصبحوا يعدون من البروتستانت فى ميولهم ومبادئهم ورغبتهم فى الاصلاح وإن أطلق عليهم اسم خاص بهم ؛ وطمع كل من الكاثوليك المتشيعين لروما والبيوريتانز أن ينالوا عطف جيمس . أما طمع الكاثوليك فلأنه ابن مارى الكاثوليكية ملكة اسكتلندة ، وأما طمع البيوريتانز فلأنه تربى تربية بروتستنتية فى اسكتلندة وفى الكنيسة البرسبتيرية[1] ، ولكنهم جميعاً ما لبثوا إلا قليلا حتى رأوه يميل إلى نظام كنيسة الدولة كما نشأت فى عهد هنرى الثامن وتوطدت فى عهد اليزابث .

واجتمع سنة ١٦٠٤ مؤتمر من قساوسة الكنيسة ، ومثلى البيوريتانز بغية التفاهم على حل ، ولكن ثلثمائة من البيوريتانز آثروا اعتزال مناصبهم على الاعتراف بكتاب الصلاة الذى تقره كنيسة الدولة . وأعلن جيمس كلمته الشهيرة يومئذ التى أفصح بها عن رغبته فى التمسك بالنظام الأسقفى فى رياسة الكنيسة وفروعها وهى قوله : « إن لم يوجد القس فلن يوجد الملك » ؛ وتهدد البيوريتانز بطردهم من المملكة إن لم يذعنوا له .

وكان أعضاء البرلمان يميلون إلى البيوريتانية فاشتد غضب أشياع روما عليهم ، كما أنهم غضبوا على الملك لتمسكه بنظام كنيسة الدولة فدبروا مؤامرتهم الشهيرة بمؤامرة البارود لنسف البرلمان والملك جميعاً ، ولكن مؤامرتهم أحبطت إذ نما خبرها إلى الحكومة ، وأزيل البارود والقنابل من تحت البناء ولاقى المؤتمرون نكال الملك جزاء بما أجرموا ، وحاق بهم سوء ما مكروا فنسف مابقى لديهم من البارود عدداً منهم ، وأصبح أشياع روما موضع سخط الناس جميعاً وكراهتهم وظل الناس زمنا طويلا لايعلمون بحادثة منكرة إلا ردوها إليهم ، وظل السذج من العامة ينسبون كل شر يقع مهما كانت صورته إليهم ، ولا يزال بعض القرويين حتى اليوم يحرقون تمثالا رمزياً للبابا فى ذكرى هذا الحادث من كل عام .

وعظم ميل الناس إلى البيوريتانية بقدر ما اشتد سخطهم على الكاثوليك ، ولكن القساوسة على الرغم من ذلك يوحون إلى الملك اضطهاد البيوريتانز والعطف على الكاثوليك من أتباع الكنيسة الانجليزية ، والتمسك بالنظام الأسقفى ، وأصبح هؤلاء القساوسة فى نظر البيوريتانز وأنصار الحرية الفكرية جميعاً رمز التعصب الأحمق والاستبداد الغبى ، لايدرون أهم أم الملك أحق منهم بالمقت والازدراء ؛ وكان كلما اشتد سخط الشعب على الأساقفة ازداد عطف الملك عليهم وحبائهم بالمودة والرعاية وبالغ فى التمكين لهم فى سلطتهم وتنفيذ ما يشيرون به يكيد بذلك لمخالفيه ويشرح صدور مؤيديه .

وتناصر على الملك وحزبه البرلمان والبيوريتانز ، وما زالت هاتان القوتان تعملان على مناوأته فى ثبات ويقين حتى أدركه الموت سنة ١٦٢٥ ، وخلف لابنه شارل الأول العرش والثورة معاً ، ولسوف تكون البيوريتانية فى عهده أشد خطراً عليه من النزاع الدستورى بينه وبين البرلمان .

واستوى على عرش انجلترة شارل الأول ، وكان فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان شارل على الضد من أبيه فى خلقه فلم يعرف التبذل واللهو ، بل كان ملكا من جميع أقطاره يملأ النفوس هيبة باحتشامه ووقاره ، ولم يك ضعيف العزيمة ولا خواراً ولا أرعن الكلم ولا ثرثاراً ؛ بيد أنه لم يتوافر له من الثقافة بقدر

(١) كانت هذه الكنيسة تسير وفق نظام كالفن فلا تجعل الرياسة الدينية فيها أو فى فروعها لرجال الدين وحدهم ، بل يختار الناس من غير القساوسة عدداً يشارك هؤلاء فى إدارة شؤونها .

ما توافر لأبيه منها . وكان البرلمان قد مرن على أساليب المعارضة والمقاومة فى عهد جيمس ، فلم يك أمام شارل إلا طريقا واحدا هو مسالمته ، ولكنه تنكب هذا الطريق ، وبالغ فى إعنات البرلمان وأسرف فى تمسكه بالحق الإلهى المزعوم ، وأصبحت سياسته تنحصر فى مقاومة الرأى العام حتى مل الناس ، وأصبحوا لا يحفلون رضاه أو غضبه .

لم يكد يجتمع أول برلمان فى السنة الأولى من حكمه حتى دب الخلاف بينه وبينه ، وذلك أن البرلمان لم يمنحه المال إلا بقدر حتى يظل محتاجا إليه فلا يحله ، كما أن البرلمان لم يعتمد له ضريبة التجارة إلا لسنة وكانت للملك طول حياته ، وكانت الحرب قائمة بينه وبين أسبانيا فكانت حاجة الملك إلى المال شديدة ، وأمدت انجلترة فرنسا ببعض سفنها لتقذف بها أسبانيا ولكن فرنسا قذفت بها البروتستنت فى أرضها حيث تحصنوا فى ميناء لاروشل فغضب البرلمان وما زال ينتقد سياسة الملك حتى ضاق به الملك فحله .

ولكنه دعا برلمانا جديدا فى السنة التالية أى سنة ١٦٢٦ فاشترط هذا البرلمان أن يزيل الملك أسباب ما يشكو الناس منه وإذ ذاك يجيبه فى سخاء إلى ما يطلب من المال . واتهم البرلمان لورد بكنجهام توطئة لمحاكمته أمام اللوردات ، وكان أقرب المقربين إلى شارل ، وكان بكنجهام هو فلير أحد أصفياء أبيه جيمس من قبله ، وكان يعتقد الناس أنه هو الذى يوحى إلى الملك الطغيان ويدفعه إلى محاربة البرلمان ، واستشاط الملك غضبا وأمر بالمحرضين على ذلك فألقى بهم فى السجن ، وامتنع البرلمان عن العمل حتى يطلق الملك سراحهم ، وأعلن ألا تجبى ضريبة التجارة إلا بموافقة البرلمان ، وأذعن الملك فأطلق المحرضين ، ولكن البرلمان عاد إلى اتهام بكنجهام فلم يطق الملك صبرا ، وتخلص منه بحله .

وعمد الملك إلى فرض قرض جبرى لمواجهة الحرب وأخذ فى جمعه بالقوة ، وكان يرسل إلى السجن من يرفض أن يدفع ، وكان ممن دخل السجن بسبب الامتناع جون همبدن أحد زعماء البرلمان وقد أصر على امتناعه معلنا فى صراحة وجرأة أن الملك لا يملك فرض مثل هذا القرض ، وزاد على ذلك قوله «إن العهد الأعظم ينبغى أن يقرأ مرتين كل سنة فى وجه من يخرجون عليه» .

واشتدت الضائقة بالملك ، فقد ساقته حماقته إلى خلاف بينه وبين فرنسا وانقلب الخلاف إلى حرب وما تزال الحرب بينه وبين أسبانيا قائمة ؛ وأرسل شارل حملة بحرية لمساعدة البروتستنت الفرنسيين (الهيوجونون) فى لاروشل ، وكانت قيادتها لبكنجهام وباءت بالفشل ، فازداد الناس سخطا عليه وعلى الملك ، وراح الملك يجمع القرض الجبرى بكل ما فى وسعه من عنف حتى لقد ألقى بنحو ثمانين من العلية فى السجن ممن حذوا حذو همبدن ، أما العامة فكان الجلد جزاء من يمتنع أو الحشد فى صفوف الجيش أو فى سفن الأسطول ، ولم يغن عن الملك بطشه نقل المال فى يديه وأيقن أن لا بد من دعوة برلمان ومهد السبيل لذلك باطلاق من سجن ، كما أنه طمع أن يكتسب بذلك مودة الشعب

واجتمع البرلمان الثالث سنة ١٦٢٨ فافترض حاجة الملك إلى عونه وعاد إلى اتهام بكنجهام ، وتحرج الأمر بينه وبين الملك . ثم أعد النواب ملتمسا سموه ملتمس الحقوق ، وأعلنوا استعدادهم لإجابة الملك إلى بغيته من المال إذا أجابهم إلى ذلك الملتمس ، ووافق الملك فأجابوه إلى ما أراد ، ونص الملتمس على أنه لا يحق للملك فرض ضريبة إلا بموافقة البرلمان ، وألا يسجن أى شخص إلا وفق القانون ، وألا يحمل الجند عالة على الناس ، وألا يلجأ إلى الأحكام العسكرية بدل القانون العام ، وهذا الملتمس مستمد فى روحه من العهد الأعظم ، ويعد بعده الوثيقة الثانية لحقوق الإنجليز وحرياتهم .

على أن أشد ما استاء منه الناس هو مسلك الملك يومئذ فى سياسته الدينية . أظهر شارل من أول الأمر ميله إلى نظام الكنيسة الإنجليزية ، ومع أنه لم يك كاثوليكيا وفق مذهب روما فإنه كان يكره البيوريتانز كرها شديداً ويخاف من تزايد عددهم ويشك فى دعوتهم الإصلاحية ويراها ضربا من التطرف لا مبرر له ويميل بالرجوع بالدين إلى مظهره الكاثوليكى القديم .

وحدث أثناء إجازة البرلمان أن قرب الملك إليه أحد رجال الدين وهو وليام لود ورقاه أسقفا للندن ، وأخذ يعمل بما يشير عليه به ، وكان لود من أشد أعداء البيوريتانز ، وكان هؤلاء يمقتونه أشد المقت لتعصبه لنظام الكنيسة الإنجليزية وليله الفطرى إلى الاستبداد بالرأى والقسوة فى معاملة خصومه واضيق تفكيره وفظاظته ، وغلظ قلبه ، فلما قربه الملك إليه ، عد البيوريتانز عمل الملك نذيرا لهم فأجمعوا أمرهم بينهم على مقاومته ومعاندة لود ومعاونة البرلمان عليهما ، وأصبح البيوريتانز من أكبر المتحمسين فى طلب الحرية السياسية ، فهى فضلا عن كونها من مبادىء مذهبهم تعد فى رأيهم الآن طريق الخلاص من وليم لود أسقف لندن خصمهم العنيد .